كتاب الإمامة والسياسة

في ميزان التحقيق العلمي

تقديم

أ.د محمد نيسان سليمان

عميد الكلية

إن الأغراض والأهواء الشخصية كثيراً، ما كانت تدفع بعض المثقفين بالتأليف فى العصور السالفة إلى نحل الكتب وتزوير مؤلفيها، تحقيقاً لكسب مادى أو مضمون ونتج عن ذلك أن وصلت إلينا مجموعة من الكتب فى علوم مختلفة منسوبة إلى علماء بارزين، وهى فى الحقيقة ليست لهم ونذكر منها على سبيل المثال، كتاب شاعت نسبته للامام الجليل أبى محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ذلك الكتاب هو "الإمامة والسياسة"، وقد وقع إختيارى على كتاب للدكتور عبدالله عسيلان، ناقش هذا الادعاء بصورة طيبة ومن باب الحرص والتنبيه للباحثين أستعرض مضمون هذا الكتاب، لعل أن يكون فى ذلك النفع والعظة :

يقول الدكتور عبدالله، ونحن نحاول أن نبرهن بقدر المستطاع على أن ذلك الكتاب لا يمكن أن يكون لابن قتيبة، وقد حثنى على كتابة هذا البحث ثلاثة دوافع :

الأول: يعود إلى ما يحويه الكتاب من أخطاء تاريخية تشوه صفحات ناصعة من تاريخنا الإسلامى، وتفتح ثغرات يستغلها أعداء الإسلام من مستشرقين وغيرهم للطعن والتشويه والدس .

الثانى: نفى نسبته إلى العالم الجليل أبى محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الذى عرف بفضله وعلمه واستقامته وإخلاصه فيما يكتبه حول التاريخ والقرآن والسنة ولقد جنت نسبة الكتاب المزعومة على ابن قتيبة، فهذا

القاضى أبوبكر بن العربى يتحامل عليه ويحذر الناس منه، ويعتبر أنه جاهل وأنه لم يدع للصحابة رسماً فى كتابه الإمامة والسياسة إن صح عنه جميع مافيه[١] ويبدو أن ابن العربى شك فى نسبة الكتاب إلى ابن قتيبة بدليل أنه عقب على كلامه فيه بقوله (إن صح عنه جميع مافيه) ولو ثبت لديه أن كتاب الإمامة والسياسة ليس لابن قتيبة لما تحامل عليه هذا التحامل .

الثالث: أنى رأيت بعض المؤرخين المحدثين يعتمدون على الكتاب وينقلون منه على أنه مرجع تاريخى لابن قتيبة دون الإشارة إلى أنه منسوب إليه مما يوهم أن الكتاب له لا لغيره كما فعل عبدالوهاب النجار فى كتابه (الخلفاء الراشدون) والخضرى فى محاضراته والدكتور حسن إبراهيم حسن فى كتابه (تاريخ الإسلام)[٢] .

وانطلاقا من هذه الدوافع شرعت فى البحث متقصيا الأدلة الكافية التى تؤكد بشكل فعلى أن كتاب الإمامة والسياسة منسوب إلى ابن قتيبة وليس من تأليفه .

وفى ختام هذا التمهيد أشير إلى أن الكتاب طبع مرتين بالقاهرة: الأولى سنة ١٣٢٢هـ والثانية سنة ١٣٧٨هـ فى جزءين، ونشرته مؤسسة الحلبى بتحقيق الدكتور طه الزينى الأستاذ بالأزهر، وللكتاب مخطوطات توجد فى

---

(١) العواصم من القواصم ص٢٤٨، ١٤٥

(٢) انظر الكتاب (١/٢٨٩)

برلين، والمتحف البريطانى، والقاهرة، ومكتبة القرويين بفاس، ومكتبة داود بالموصل، ومكتبة باريس .

موضوع الكتاب ومادته

كل من اطلع على الكتاب يعرف أنه يبحث فى التاريخ ويختص بالحديث عن الفترة الواقعة بين خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه وخلافة الخليفة العباسى هارون الرشيد، أى أنه يقف عند القرن الثالث، ولم يهتم المؤلف بالحديث عن الفتوحات الإسلامية باستثناء ما ذكره عن فتح المسلمين للمغرب وأسبانيا وركز بصورة خاصة على بيان الطريقة التى تحصل بها الإمامة، والكتاب لا يخلو من المواد الخرافية والأخبار الواهية، وناهيك أن قسماً كبيراً من رواياته جاءت بصيغة التعريض فكثيراً ما يجئ فيه (ذكروا عن بعض البصريين)[١] (ذكروا عن محمد بن سليمان عن مشايخ أهل مصر)[٢] (وحدثنا بعض مشائخ أهل المغرب)[٣] ومثل هذه الروايات التى تشتمل على أشخاص مجهولين لا يرتضيها علماء أصول الحديث ويرفضون النص الذى يحتوى سنده على رجل مجهول، وليس هذا كل شئ بل إن فى الكتاب خلطا وأخطاء فى الحقائق التاريخية، وتشويها لها كما سيبدو لنا فيما يلى، ولابد من

---

(١) انظر الكتاب (٢/٧٠) .

(٢) انظر الكتاب (٢/٧٢) .

(٣) انظر الكتاب (٢/٧١)

الإشارة إلى أن الكتاب يحتاج إلى من يحقق حوادثه وفق الأصول المعتبرة فى التحقيق التاريخى، ويقارن بينها وبين ما ورد فى مراجع التاريخ المعتمدة ليتم التثبت مما ورد فيه من أحداث وأخبار، والعجيب أن محقق الكتاب الدكتور طه الزينى لم يكلف نفسه عناء التحقيق فى مؤلفه بل اعتقد أنه لابن قتيبة وراح يشيد بذلك فى المقدمة قائلا: (فإن كتاب الإمامة والسياسة للعالم الفاضل المؤرخ العظيم عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى من أشهر الكتب تداولا بين قراء العربية لما حواه من تاريخ حقبة عزيزة على نفس كل مسلم)[1] وهذا يعنى أن المحقق إما أن يكون قد غفل عما ذكره الباحثون حول نسبة الكتاب، وإما أنه تغافل ضماناً لرواجه مع أن روح البحث العلمى تقتضى أن تترك المصلحة جانباً فى سبيل إثبات الحقيقة .

أخطاء وتشويه

والكتاب كما قلت يشتمل على أخطاء تاريخية فيها الشئ الكثير من الخلط والتشويه الأمر الذى جعل الإمام الجليل أبا بكر بن العربى يتحامل على الكتاب وعلى مؤلفه فى قوله (ومن أشد شئ على الناس جاهل عاقل ومبتدع محتال فأما الجاهل فهو ابن قتيبة فلم يبق ولم يذر للصحابة رسماً فى كتابه الإمامة والسياسة إن صح عنه جميع ما فيه)[2] .

---

١) مقدمة الكتاب طبعة مؤسسة الحلبى سنة ١٣٧٨هـ

(٢) العواصم من القواصم ص ٢٤٨

ويبدو من هذا النص أن ابن العربى يصب تحامله على ابن قتيبة ظناً منه أنه هو مؤلف الكتاب إذ أنه لم يتأكد تمام التأكد أنه منسوب إليه وليس له، ويرى محب الدين الخطيب أن كتاب الإمامة والسياسة مشحون بالجهل والغباوة والركة والكذب والتزوير[١]، وإذا احتاج هذا الرأى إلى دليل فإن فى الكتاب نماذج يتجلى فيها الخطأ الذى ينم عن الجهل، والتشويه الذى يزور واقع الحقائق التاريخية، ويطمس الصفحات الناصعة لبعض الصحابة الكرام رضى الله عنهم، ومن هذه النماذج ما ذكره تحت عنوان (ما أنكر الناس على عثمان رحمه الله) واعتبر من الأمور التى أنكرها الناس على عثمان كما جاء فى عباراته (ما كان من هبته خمس أفريقية لمروان، وما كان من إفشائه العمل والولايات فى أهله وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلى بهم الصبح وهو أمير عليها سكران أربع ركعات ثم قال لهم إن شئتم ازيدكم صلاة زدتكم)[٢] والعلماء المحققون يرفضون كل ما ذكره عن عثمان بن عفان رضى الله عنه فهذا القاضى أبو بكر بن العربى يذكر فى كتابه القيم العواصم من القواصم الأمور التى اعتبرها صاحب الإمامة والسياسة من المآخذ على عثمان ويعقب عليها قائلا: (هذا كله باطل سنداً ومتناً)[٣] ثم يشرع فى تنفيذها واحداً واحدا، ومن الملاحظ أنه - أى صاحب الإمامة والسياسة - قد تجنى على

---

(١) تعليقه على العواصم من القواصم ص ٢٤٨

(٢) الإمامة والسياسة (١/٣٥)

(٣) العواصم من القواصم ص ٦٣

الصحابى الجليل الوليد بـن عقبـة، وحتـى لا أطيـل فـى مناقشـة مـا ذكـره أحيـل القارئ إلى التحقيق الجيد الذى كتبه المفكر الإسلامى محب الديـن الخطيـب حـول الوليد ابن عقبة فى تعليقه على كتاب العواصم من القواصم من ص ٩٤ إلى ص ٩٩ .

ومن النمانج التى يتجلى فيـها الخطأ والتشـويه مـا ذكـره تحـت عنـوان (إباية على كرم الله وجهه بيعة أبى بكر رضى الله عنه) يقول: ثم إن علياً كرم الله وجهه أتى به إلى أبى بكر وهو يقول أنا عبدالله وأخو رسوله فقيل له بـايع أبا بكر فقال أنا أحق بهذا الأمر منكم لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لى)[1] فهو يرى إذا أن على بن أبى طالب رضى الله عنه رفض مبايعة أبى بكر، وليس فـى ذلك شئ من الصواب، والصحيح أن علياً رضى الله عنـه لم يرفـض مبايعـة أبـى بكر بل إنه بايعه، ويؤيد هذا القول ما ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية من أن أبا بكر صعد المنبر فنظر فى وجوه القوم فلم يـر الزبـير قـال فدعـا بالزبـير فجاء فقال: قلت ابن عم رسول الله وحواريـه وأردت أن تشـق عصـا المسـلمين، فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فقال فبايعه، ثم نظر فى وجوه القوم فلم ير علياً فدعا بعلى بن أبى طالب فجاء فقال: قلـت ابـن عـم رسـول الله وختنـه على ابنته أردت أن تشق عصا المسلمين قـال: لا تـثريب يـا خليفـة رسـول الله فبايعه[2] على أن هذه الرواية ثابتة وليس فيها ما يطعن فى سندها ، واستنتج

---

(١) الإمامة والسياسة (١٨/١) .

(٢) البداية والنهاية (٢٤٩/٥) الطبعة الجديدة

منها ابن كثير فائدة جليلة وهى مبايعة على بن أبى طالب لأبى بكر[١] .

وإذا تابعنا ما جاء فى الكتاب من الخطأ والتشويه نجد ما أورده عن عائشة حينما علمت بقتل عثمان يذكر أنها قالت (قتل والله مظلوماً) وأنا طالبة بدمه فقال لها عبيد: إن أول من طعن عليه وأطمع الناس فيه لأنت، ولقد قلت أقتلوا نعثلا فقد فجر فقالت عائشة: قد والله قلت وقال الناس وآخر قولى خير من أوله)[٢] لا أعلق على هذه الرواية بأكثر من قولى إنها باطلة وليس لها نصيب من الصحة ومن المستبعد جدا أن تقول عائشة رضى الله عنها فى عثمان ابن عفان مثل ما ذكره صاحب الإمامة والسياسة من الطعن فيه والتحريض على قتله، ومما ينفى ما ذكره أن عائشة رضى الله عنها نفت عن نفسها ما اتهمت به من انها كتبت إلى الناس تأمرهم بالخروج على عثمان فقالت (والذى آمن به المؤمنون، وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم سواداً فى بياض، قال الأعمش فكانوا يرون أنه كتب على لسانها)[٣]

وليس هذا كل شئ بل إن فى الكتاب أخطاء تاريخية واضحة من مثل جعله أبا العباس والسفاح شخصيتين مختلفتين[٤]، وجعله هارون الرشيد

---

(١) المصدر السابق (٥/٢٤٩) .

(٢) الإمامة والسياسة (١/٥١) .

(٣) العواصم من القواصم ص ١٣٦، وقد ناقش الحادثة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى كتابه القيم (مناهج السنة، ٢/١٨٨) الطبعة الأولى، وبين بطلانها، كما ناقشها الأستاذ سعيد الأفغانى فى كتابه (عائشة والسياسة ص ٤٤)

(٤) انظر الإمامة والسياسة (٢/١٢١)

الخلف المباشر للمهدى[١] ولو أردنا أن نتابع ما جاء فى الكتاب من أخطاء وتشويه لطال بنا الحديث، ونكتفى بما ذكرناه من النماذج .

شخصية المؤلف الحقيقى

لقد حاوت كثيراً أن أتعرف على شخصية المؤلف الحقيقى لكتاب الإمامة والسياسة ولكنى لم أعثر على شئ يمكننى من الوقوف على شخصيته بشكل واضح محدد، والذى يظهر أن المؤلف رجل مصرى أو مغربى من رجال القرن الثالث ومعاصر لابن قيبة، وربما كان من أتباع الإمام مالك كما يبدو من انتصاره له على أتباع أبى حنيفة، ويقدر مارغوليوس أن مؤلف الكتاب ربما كان قصاصاً أسبانيا[٢] وأغلب الظن أنه مغربى فكثيراً ما يروى عن أهل المغرب من مثل (حدثنا بعض أهل أفريقية أن موسى ..) (حدثنا بعض مشائخ أهل المغرب) (حدثنا الكرير أبو بكر عبدالوهاب بن عبدالغفار شيخ من مشائخ تونس)[٣] هذا كل ما نعرفه عن شخصية المؤلف الحقيقى .

أدلة نسبة الكتاب

لا ندرى على وجه التحديد متى ظهرت نسبة الكتاب لابن قتيبة، والذى يبدو أن النسبة كانت شائعة قبل منتصف القرن السادس، ويؤيد ذلك أن

---

(١) انظر الإمامة والسياسة (١٥٢/٢)

(٢) دراسات عن المؤرخين العرب ص ١٣٥

(٣) الإمامة والسياسة (٧١/٢)

القاضى ابن العربى المتوفى سنة (٥٤٣) أشار إلى الكتاب فى العواصم من القواصم، وظن أنه لابن قتيبة، وربما كان الكتاب من نتاج القرن الثالث ويرى الدكتور إسحاق الحسينى أن نسبته إلى ابن قتيبة قد خرجت من المغرب لما كان يتمتع به عالمنا هناك من سمو المكانة وعظيم الشهرة)[١] ولعل القاضى ابن العربى المتوفى سنة ٥٤٣هـ هو أول من شك فى نسبة الكتاب[٢]، ولم أجد بعده من تابعه فى ذلك، ويظهر أن المستشرقين اهتموا بالتحقيق فى نسبة الكتاب وأول من اهتم بذلك المستشرق (دى جاينجوس) P. de gayngos فى كتابه (تاريخ الحكم الإسلامى فى أسبانيا) ومن ثم أيده الدكتور (ر.دوزى) R.Dozy فى كتابه (التاريخ السياسى والأدبى لأسبانيا)، وذكر الكتاب كل من بوركلمان فى تاريخ الأدب العربى والبارون دى سلان فى فهرست المخطوطات العربية بمكتبة باريس باسم أحاديث الإمامة والسياسة، ومارغوليوس فى كتابه دراسات عن المؤرخين العرب، وقرروا جميعا أن الكتاب منسوب إلى ابن قتيبة ولا يمكن أن يكون له، على أن ثمة أدلة قاطعة تقرر بما لا يقبل الشك أن ابن قتيبة لم يكن بشكل من الأشكال مؤلف كتاب الإمامة والسياسة وإليك الأدلة:

١-أن الذين ترجموا لابن قتيبة لم يذكر واحد منهم أنه ألف كتابا فى التاريخ يدعى الإمامة والسياسة، ولا نعرف من مؤلفاته التاريخية إلا

---

(١) ابن قتيبة الناقد ص ١٧٠ .

(٢) انظر العواصم من القواصم ص ٢٤٨ .

كتاب المعارف، والكتاب الذى ذكره صاحب كشف الظنون باسم (تاريخ ابن قتيبة) والذى توجد منه نسخة بالخزانة الظاهرية بدمشق رقم (٨٠) تاريخ .

٢- أن المتصفح للكتاب يشعر أن ابن قتيبة أقام فى دمشق والمغرب فى حين أنه لم يخرج من بغداد إلا إلى الدينور .

٣- أن المنهج و الأسلوب الذى سار عليه مؤلف الإمامة والسياسة يختلف تماما عن منهج وأسلوب ابن قتيبة فى كتبه التى بين أيدينا، ومن الخصائص البارزة فى منهج ابن قتيبة أنه يقدم لمؤلفاته بمقدمات طويلة يبين فيها منهجه والغرض من مؤلفه، وعلى خلاف ذلك يسير صاحب الإمامة والسياسة، فمقدمته قصيرة جدا لا تزيد على ثلاثة أسطر هذا إلى جانب الاختلاف فى الأسلوب، ومثل هذا النهج لم نعهده فى مؤلفات ابن قتيبة .

٤- يروى مؤلف الكتاب عن ابن أبى ليلى بشكل يشعر بالتلقى عنه، وابن أبى ليلى هذا هو محمد بن عبدالرحمن بن أبى ليلى الفقيه قاضى الكوفة توفى سنة ١٤٨[1]، والمعروف أن ابن قتيبة لم يولد إلا سنة (٢١٣) أى بعد وفاة ابن أبى ليلى بخمسة وستين عاما .

٥- أن الرواة والشيوخ الذين يروى عنهم ابن قتيبة عادة فى كتبه لم يرد لهم ذكر فى أى موضع من مواضع الكتاب .

٦- يبدو من الكتاب أن المؤلف يروى أخبار فتح الأندلس مشافهة من أناس عاصروا حركة الفتح من مثل (حدثتنى مولاة لعبدالله بن موسى وكانت من

---

(١) انظر تهذيب التهذيب (٣٠١/٩) والإشارات فى المبهمات للنووى ص ٣

أهل الصدق والصلاح أن موسى حاصر حصنها التى كانت من أهله)[١] والمعروف أن فتح الأندلس كان سنة ٩٢ أى قبل مولد ابن قتيبة بنحو مائة وواحد وعشرين عاماً .

٧- أن كتاب الإمامة والسياسة يشتمل على أخطاء تاريخية واضحة، مثل جعله أبا العباس والسفاح شخصيتين مختلفتين، وجعله هارون الرشيد الخلف المباشر للمهدى[٢]، واعتباره أن هارون الرشيد أسند ولاية العهد لابنه المأمون ومن ثم لابنه الأمين[٣] وإذا رجعنا إلى كتاب المعارف[٤] لابن قتيبة نجده يمدنا بمعلومات صحيحة عن السفاح والرشيد تخالف ما ذكره صاحب الإمامة والسياسة .

٨- أن فى الكتاب رواة لم يرو عنهم ابن قتيبة فى كتاب من كتبه من مثل (أبى مريم وابن عفير)[٥] .

٩- ترد فى الكتاب عبارات ليست فى مؤلفات ابن قتيبة نحو (قال ثم إن)[٦] (وذكروا عن بعض المشيخة)[٧] (حدثنا بعض المشيخة)[٨] ومثل هذه التراكيب بعيدة كل البعد عن أسلوب وعبارات ابن قتيبة ولم ترد فى كتاب من كتبه .

---

(١) الإمامة والسياسة (٢/٦٥) .

(٢) المصدر السابق (٢/١٥٣) .

(٣) المصدر السابق (٢/١٧٣ ، ١٧٤) .

(٤) انظر كتاب المعارف ص ١٦٧ الطبعة الأولى ١٣٥٣ .

(٥) الإمامة والسياسة (١/١٢) .

(٦) الإمامة والسياسة (١/٢٢، ٢٣) .

(٧) المصدر السابق (٢/١١) .

(٨) المصدر السابق (٢/١٦)

١٠- من الملاحظ أن مؤلف الإمامه والسياسة لا يهتم بالتنسيق والتنظيم فهو يورد الخبر ثم ينتقل منه إلى غيره ثم يعود ليتم الخبر الأول، وهذه الفوضى لا تتفق مع نهج ابن قتيبة الذى يستهدف التنسيق والتنظيم

١١- أن مؤلف الإمامة والسياسة يروى عن اثنين من كبار علماء مصر وابن قتيبة لم يدخل مصر ولا أخذ عن هدين العالمين[١]

١٢- أن ابن قتيبة يحتل منزلة عالية لدى العلماء فهو عندهم من أهل السنة وثقة فى علمه ودينه، يقول السلفى. (كان ابن قتيبة من الثقات وأهل السنة) ويقول ابن حزم. (كان ثقة فى دينه وعلمه) وتبعه فى ذلك الخطيب البغدادى[٢] ويقول عنه ابن تيمية: (وإن ابن قتيبة من المنتسبين إلى أحمد وإسحاق والمنتصرين لمذاهب السنة المشهورة)[٣] وهو خطيب السنة كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة ورجل هذه منزلته لدى رجال العلم الحقيقيين هل من المعقول أن يكون مؤلف كتاب الإمامة والسياسه الذى شوه التاريخ وألصق بالصحابة الكرام ما ليس فيهم؟

ومن خلال الأدلة السابقة يتضح لنا بشكل قاطع أن كتاب الإمامة والسياسة لا يمكن أن يكون من مؤلفات ابن قتيبة بل إنه منسوبب إليه كذبا وتزويرا، ومن يخالطه شئ من الشك فى هذه الحقيقة فإن الأدلة التى سقناها كفيلة بأن تقعنه، وتزيل شكه

---

(١) المصدر السابق (٦٤/٢)

(٢) لسان الميزان (٣٥٧/٣)

(٣) تفسير سورة الإخلاص ص ٨ الطبعه الأولى سنة ١٣٢٣هـ

بقى أن أقول إننا بحاجة إلى من يتتبع تاريخنا الإسلامى فى مصادره الأصلية المعتمدة فيحقق حوادثه وأخباره على ضوء الأصول المقررة فى علم مصطلح الحديث، ومناهج التحقيق التاريخى لكى نسير فى الطريق الصحيح لدراسة التاريخ، ونكون على بصيرة من أمرنا والله الموفق لسواء السبيل .

أ.د محمد نيسان سليمان
عميد الكلية